بسم الله الرحمن الرحيم

دروس في الكتمان
من السيرة النبوية

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً}

تأليف
محمود شيت خطّاب



المقَدِّمَة

في حياة النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية، أمثلة رائعة في "الكتمان" ما أحرانا أن نذكرها ونتذكرها في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الأمة (...) بعد حرب حزيران – يونيو – ١٩٦٧.

وليس سراً، أن إسرائيل بذلت جهوداً جبّارة من أجل الحصول على أدق التفاصيل العسكرية عن العرب، فقاتلت في تلك الحرب مفتوحة العينين؛ تعرف كل شيء عن العرب، ولا يعرف العرب عنها شيئاً!

ورب كلمة يقولها عابر سبيل في سيارة أو مقهى أو منتدى، يتلقفها جاسوس أو عميل، تؤدي إلى نكبة قاصمة للظهر وإلى خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (المسلم مَنْ سلم المسلمون من يده ولسانه).

ولعل تفسير هذا الحديث النبوي الشريف واضح، ولكنني أجد فيه اليوم معاني أعمق مما يخيل للكثيرين من المفسرين.

فالمسلم الذي يشتم أخاه المسلم، قد يلحق به ضرراً شخصياً ضمن نطاق محدود. ولكن المسلم الذي يذيع أسرار إخوانه المسلمين قد يلحق بهم ضرراً مصيرياً يودي بهم إلى الدرك الأسفل استعباداً وذلاً وخسائر بغير حدود.

وحين اقترح عليّ المذياع المصوّر[1] معالجة الجانب العسكري من حياة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، قرّرت أن أتكلم عن "الكتمان" شعوراً مني بأنه موضوع الساعة.

ذلك لأنني لمست بأن الكثيرين يثرثرون بالأسرار العسكرية بشكل يقطّع نياط القلب، ويفيد إسرائيل ويضر العرب دون مبرر.

ونشر هذا البحث قد يفيد في هذه الظروف ضمن أوسع نطاق.

والله أسأل أن يفيد به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

[1] التلفزيون.

معنى الكتمان
(١)

في اللّغة: كَتَم الشيء كَتْماَ وكِتْماناً: ستره وأخفاه، ومنه: الكُتَمَة: الذي يكْتُم سِرّه، والكَتُوم الذي يَكْتُمُ سِرّه.

ولكن "الكِتْمَان" – في المصطلحات العسكرية الحديثة – معناه: إخفاء المعلومات العسكرية الخاصة بقواتنا وأسلحتها وتنظيمها وتجهيزها وقيادتها وحركاتها، والخاصة بطبيعة الأرض في بلادنا أيضاً، عن العدو والصديق، وعدم إفشاء الأسرار العسكرية مهمّة كانت أم غير مهمّة، وصغيرة كانت أم كبيرة، وتافهة كانت أم خطيرة، لكل إنسان سواء كان عدواً أم صديقاً.

وكتمان المعلومات العسكرية عن العدو لا يحتاج إلى بيان، فمحاذيره معروفة، ونتائجه معروفة أيضاً.

ولكن كتمان المعلومات العسكرية عن "الصّديق"، يحتاج إلى شيء من البيان.

الصديق نوعان: نوع له علاقة بالقضايا العسكرية، فإذا كان هذا الصديق فوق الشبهات، فلا بأس من اطلاعه على المعلومات العسكرية التي لها صلة مباشرة بعمله وواجبه العسكري دون زيادة أو نقصان.

ونوع لا علاقة له بالقضايا العسكرية، فيجب ألاّ تفشى له المعلومات العسكرية في أية حال من الأحوال.

فقد يكون هذا "الصّديق" يحبّ التظاهر والتباهي، فيذيع ما اطلع عليه من الأسرار العسكرية.

وقد يكون غير مقدّر لأهميّة "الكِتْمَان"، وقد يكون غير مقدِّر لأهمية ما اطلع عليه من أسرار عسكرية، فيذيع ما يعرفه عنها لكل مَنْ هبّ ودبّ.

ومن المحرّم على العسكري الحق، أن يبوح بأسراره حتى لوالديه وذوي قرباه، وفي التاريخ العسكري أمثلة كثيرة، تذكر كيف استطاع العدو أن يطّلع على الأسرار

العسكرية من عوائل العسكريين – خاصة النساء منهم – فضيّعت تلك الأسرار كثيراً من المعارك والحروب.

إن الأسرار العسكرية، يجب أن تبقى في طيّ "الكِتْمَان" الشديد، ولا عذر لمن يذيعها بحجّة أو بأخرى للعدو أو الصديق على حدّ سواء.

والذي يطّلع على الأسرار العسكرية، يجب أن يصونها بالكتمان، لا فرق في ذلك بين العسكريين والمدنيين.

أهمية الكتمان
(٢)

لقد كان من جملة أسباب انتصار إسرائيل على العرب في حرب حزيران – يونيو – ١٩٦٧، هو أن إسرائيل استطاعت إقتناص الأسرار العسكرية العربية، فحاربت العرب على هدى وبصيرة.

وقد صرّح المسؤولون العسكريون في إسرائيل، بأن من أهم أسباب انتصارهم على العرب، أن مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب.

والدرس الكبير الذي يجب أن يتعلّمه العرب من تلك الحرب، هو أن يصونوا معلوماتهم عن أسرارهم العسكرية، وأن يتحلّوا بأعلى درجات "الكِتْمَان".

ولو كان العرب شعوباً وحكومات، وأفراداً وجماعات، عند مسؤولياتهم التاريخية في "الكتْمَان"، وهم في حرب حياة أو موت، ضد إسرائيل المعتدية المغتصبة، لما استطاعت إسرائيلَ ومَنْ وراء إسرائيل، أن يجمعوا المعلومات المفصّلة الدقيقة، عن الجيوش العربية، وعن أسرارها العسكرية الحيوية.

ولكن العرب، مع الأسف الشديد، استهانوا بعدوهم، وتهاونوا في "كتمان" أسرارهم العسكرية، فحلّت بهم النكبة، وضيّعوا القدس الشريف وأجزاء واسعة من أرضهم.

لقد كنت في سيارة تنهب الأرض نهباً في أحد البلاد العربية، فسمعت سائقها يتبجّح بعرض معلوماته عن المطارات العسكرية وعن أوكار الطائرات الجاثمة فيها!!

وكان في السيارة عدد من الركّاب لا أعرفهم، فما سمعت أحداً منهم استنكر أقوال السائق وأمره بالسكوت.

وحين تمادى السائق في غيّه، حاولت أن أضع حدّاً لحديثه، ولكنه رغم أن المعلومات التي ذكرها يعرفها كل إنسان!!!

ومن المذهل حقاً، أن الركاب الآخرين أيّدوه في ادعائه!!

هل يعرف كل إنسان كل المعلومات الخطيرة عن الأسرار العسكرية العربية؟!

إذا كان الأمر كذلك، فإنه سيؤدي إلى كوارث لا يعلم إلاَّ الله مداها وتأثيرها، ولا بد لكل حريص على شرف أمته من أن يتعلّم "الكِتْمَان" ويعلِّم "الكِتْمَان" غيره من الناس

يجب أن تلقى المحاضرات عن "الكِتْمَان" في المدارس والمعاهد والجامعات

ويجب أن يُركّز خطباء الجوامع (...) على أهمية التحلي بمزية "الكِتْمَان".

ويجب أن نرسل البعوث إلى المدن والقرى والأرياف لتعليم السُّكّان أهمية "الكِتْمَان".

يجب أن يعرف الشعب كله بكل مكان، أهمية الحرص الشديد على المعلومات العسكرية خاصة والمعلومات الأخرى التي لها طابع سري.

يجب أن نحذر الناس من مغبة "الثرثرة" التي لا طائل من ورائها ولا جدوى ولا فائدة.

إن قضايا "الكِتْمَان" لها نتائج حاسمة على النصر والاندحار، والأمة التي لا تتحلى بالكتمان الشديد، لا تنتصر أبداً.

تراث الكتمان العربي الإسلامي
(٣)

من المعلوم أن "المباغتة"[٢] مبدأ من أهم مبادئ الحرب، و "الكتْمَان" وسيلة من وسائل تطبيق هذا المبدأ، لأن العدو الذي يكشف نيات مَن يحاربه قبل وَقت مبكر، لا بد من أن يعمل بكل طاقاته على إحباط تلك النيات.

وقد كان "الكتْمَان" ولا يزال وسيبقى من سجايا العربي الأصيل، وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق "دِينٌ" واجب التمسك به في السلم والحرب.

ولو أردنا أن نستقصي ما ورد في الأدب العربي شعراً ونثراً عن الكتمان، لطال بنا المقال وبَعُدَ الشوط، وسأقتصر على بعض الأمثال العربية الشائعة.

من تلك الأمثال: (إياك وأن يَضْرِب لسانُك عنقك)[٣] و (إن للحيطان آذاناً)[٤] و (صدرك أوسع لسِرِّك)[٥] و (الحذر أشد من الوقيعة)[٦].

وقال تعالى في كتابه العزيز: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً} [٧].

هذا الأمر الإلهي يرشد المسلمين ليس إلى أهمية "الكتْمَان" فحسب، بل إلى وجوب إخبار المسؤولين عن كل أمر يؤثِّر في المعنويات تأثيراً سيِّئاً، ليروا فيه رأيهم، ويضعوا حدّاً لانتشاره وإشاعته، حتى لا يتفاقم ضرره، ويتوصل الذين أذاعوه إلى أهدافهم من إذاعته بسهولة ويُسْر.

---

[٢] المباغتة: أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم. ومن أهم وسائل المباغتة: الكتمان.

[٣] مجمع الأمثال (٧٥/١) – بيروت – ١٩٦٢.

[٤] مجمع الأمثال (١١٩/١).

[٥] مجمع الأمثال (٥٥٠/١).

[٦] مجمع الأمثال (٢٩٣/١).

[٧] الآية الكريمة من سورة النساء (٤: ٨٣).

وهذا بالطبع يشمل القضايا المصيرية، أما الأخبار عن القضايا الشخصية التافهة فهذا تجسس لا يقره الإسلام.

وقد حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية، وجعل إذاعتها من شأن "المنافقين"، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً}[٨]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا}[٩].

ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان).

وقال عليه الصلاة والسلام: (رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم).

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: (سرّك أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره).

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (القلوب أوعية الأسرار، والشّفاه أقفالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سره).

هذا قليل من كثير مما ورد في كتمان السر من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال مأثورة، وكلها تحثّ على الاستمساك بهذه الفضيلة، وتحذر من العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها إفشاء الأسرار.

إن السر أمانة ووديعة وعهد، وما كان للمسلم أن يخون الأمانة، أو يعبث بالوديعة، أو ينقض العهد، والله تعالى يقول: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}[١٠].

ويقول الحسن بن علي رضي الله عنه: (إن من الخيانة أن تتحدّث بسر أخيك).

---

[٨] الآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٢: ٦٠).
[٩] الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩: ٦).
[١٠] الآية الكريمة من سورة الإسراء (١٧: ٣٤).

وإذا كان السر أمانة ووديعة وعهد في العلاقات الشخصية التي تضر بمصالح شخص أو أشخاص، فإن السر أمانة كبرى ووديعة عظمى وعهد وثيق في العلاقات الاجتماعية التي تضر بمصالح الجيش والأمة.

إن الذي يفشي أسرار جيشه وأمته، مقصر أعظم التقصير في حق جيشه وحق أمته، وليس له عذر يعتذر به أمام الله وأمام الناس.

أمثلة عن الكتمان
(٤)

والدروس العملية التي يستطيع المسلمون أن يتعلّموها من الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام في "الكِتْمَان" أكثر من أن تُعَد وتُحْصى.

وسأقتصر على نماذج قليلة من الدروس العملية المستنبطة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه، حتى يعرف العسكريون المسلمون والمدنيون أيضاً كيف كان عليه الصلاة والسلام يعتمد أقصى درجات "الكِتْمَان" في أعماله العسكرية، فقد يكون في ذلك عبرة للعسكريين خاصة والمدنيين عامة.

فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلاً بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي للقيام بواجبات استطلاعية.

وتوجّهت تلك السرية نحو هدفها في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع قائدها رسالة "مكتومة" أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يفتحها إلا بعد يومين من مسيره، فإذا فتحها وفهم ما فيها، مضى في تنفيذها غير مستكره أحداً من أفراد قوته على مرافقته.

كان مضمون تلك الرسالة "المكتومة": (إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل "نَخْلَة" بين مكة والطائف، فـــ "ترصّد" بها قريشاً و "تعلم" لنا من أخبارهم).

وبعد يومين من مسير عبد الله بن جحش عن قاعدة المسلمين المدينة المنورة فضَّ تلك الرسالة "المكتومة"، وأطْلع رجاله على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم نهاه أن يستكره أحداً منهم على مرافقته، فلم يتخلف رجل من رجاله [١١]، وسارعوا إلى تنفيذها فوراً.

لقد "ابتكر" الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب "الرسائل المكتومة"، للمحافظة على "الكِتْمَان" الشديد، ولحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن حركَات المسلمين وأهدافهم، وبذلك أخفى نياته عن العدو والصديق.

---

[١١] انظر طبقات ابن سعد (٢/١٠) - بيروت - ١٣٧٦.

لقد سبق المسلمون غيرهم في "ابتكار" هذا الأسلوب الدّقيق للكتمان، قبل أن يفطن إليه الألمان ويستعملوه في الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ – ١٩٤٥].

وربما يكون للألمان عذرهم في انتحال "إبتكار" أسلوب "الرسائل المكتومة" لسبب أو لآخر... وادعاؤهم بأنهم أول من فكّر في مثل تلك الرسائل...

ولكن، ما عذر المسلمين في مشايعة الألمان في ادعائهم هذا وزعمهم بأن الألمان هم أول من ابتكر هذا الأسلوب؟

لقد نسي المسلمون تراثهم، وأصبحوا يستوردون ما يكتبه الأجانب حتى في مجالات التراث العربي الإسلامي.

أثر الكتمان في المباغتة
(٥)

أ) وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم بعد شهرين من غزوة "أُحُد"[١٢]، أن طُلَيْحة وسَلَمَة ابني خُوَيلد يحرّضان قومهما "بني أسد" بن خزيمة لغزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين فيها.

وقرر النبي صلى الله عليه وسلم إرسال دورية قتال بقوة خمسين ومائة مسلماً من المهاجرين والأنصار بين راكب وراجل، فيهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما بقيادة سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه للقضاء على "بني أسد" قبل قيامهم بغزو المدينة المنورة، وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً، وسلوك طريق غير مطروقة، حتى لا يطّلع أحد على أخبارهم ونياتهم، فباغتوا بذلك "بني أسد" في وقت لا يتوقعونه.

وسار أبو سلمة ليلاً، وكمن نهاراً، حتى وصل إلى ديار "بني أسد"، دون أن يعرفوا عن حركته إليهم شيئاً، فأحاط بهم فجراً، فلم يستطع المشركون الثبات، ثم ولّوا الأدبار.

وأرسل أبو سلمة مفرزتين من قواته لمطاردتهم، فعادتا بالغنائم[١٣].

ب) وفي غزوة "دومة الجندل"[١٤] قاد النبي صلى الله عليه وسلم ألف راكب وراجل من المهاجرين والأنصار لمنع القبائل البدوية التي تقطن "دومة الجندل" من قطع الطرق ونهب القوافل، والقضاء على حشودها التي تزمع غزو المدينة المنورة.

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين من المدينة المنورة في ربيع الأول من السنة الخامسة الهجرية، يكمن بهم نهاراً ويسير ليلاً.

---

[١٢] كانت غزوة (أحد) في شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

[١٣] الرسول القائد (١٩٥ - ١٩٦).

[١٤] دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق، تقع بين دمشق والمدينة المنورة، فيها حصن مبني بالجندل، لذلك سميت بدومة الجندل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٦/٤) - القاهرة - ١٣٢٣ هـ.

وقد قطع المسلمون المسافة بين المدينة المنورة و "دومة الجندل" بخمس عشرة مرحلة، فلما وصل إليها المسلمون فرَّت القبائل خوفاً من لقائهم، كما فرّ أهل "دومة الجندل" فلم يجد المسلمون أحداً منهم.

وعاد المسلمون من "دومة الجندل" بعد أن أقاموا فيها بضعة أيام[١٥].

ج) إن "كِتْمَان" نيّات المسلمين بالمسير ليلاً، هو الذي جعلهم ينتصرون على أعدائهم.

لقد كان التفوق العَدَدي والعُدَدي مع أعداء المسلمين، ولكن "الكِتْمَان" هو الذي أدّى إلى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

والدرس الكبير القيم الذي يمكن استنباطه، هو "كِتْمَان" حركة قواتنا من قواعدها إلى أهدافها والامتناع عن نشر أخبارها في الإذاعة والإذاعة المصورة[١٦] والصحف والمجلات وبكل وسائل الإعلام، لأن أعداءنا لنا بالمرصاد، فلا يجوز لنا ولا ينبغي أن نكشف لهم نيّاتنا، مما يحملهم على إعداد الخطط اللازمة لإحباط حركاتنا العسكرية في المكان والزمان المناسبين.

---

[١٥] الرسول القائد (٢٠٤ – ٢٠٥).

[١٦] التلفزيون.

الأثر الشخصي في الكتمان
(٦)

أ) وفي "غزوة الأحزاب" [١٧] التي كانت في شوّال من السنة الخامسة الهجرية، علم النبي صلى الله عليه وسلم، أن "بني قريظة" من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان وأشجَع وسُلَيم وبني أسد.

وتحرّج موقف المسلمين كثيراً – وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل – بعد أن نكثت بني قريظة، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من المسلمين إلى بني قريظة ليتأكد من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب، وأمره أن "يلحن" بالقول حين يعود إليه ولا يُفْصِح في حالة نكث بني قريظة، خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار، وحتى يستكمل المسلمون إعداد "الخندق" وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم.

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعْدَاداً وعُدَداً، أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما كان من أمر قريظة، ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الإسلام.

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم، سمع بإذاعة نبأ نكث بني قريظة عهدها قبل أن يُعِدّ المسلمون كل متطلبات القتال، لانهارت معنويات المسلمين لأن الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة المنورة وخارجها.

ب) وفي هذه الغزوة أيضاً، جاء نُعَيْم بن مسعود الغطفاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه، وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما أنت رجل واحد، فخذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة).

وكتم النبي صلى الله عليه وسلم إسلام نعيم، فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة عن إسلامه شيئاً.

---

[١٧] غزوة الخندق.

وخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال لهم: (عرفتم ودي إيّاكم، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم: البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحوّلوا منه، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نُهْزَةً[١٨] وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رُهْناً[١٩] من أشرافهم حتى تناجزوا محمداً).

قال بنو قريظة: (أشرتَ بالنُّصح، ولست عندنا بمتّهم)...

ثم خرج نعيم إلى قريش فقال لهم: (بلغني أن قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمد؛ هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فنضرب أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم؟! فأجابهم: أن نعم! فإن طلبت قريظة منكم رُهْناً من رجالكم، فلا تدفعوا لهم رجلاً واحداً...).

وجاء نعيم غطفان فقال لهم: (أنتم أهلي وعشيرتي...)، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم!!

وأرسل أبو سفيان بن حرب وسادة غطفان إلى بني قريظة عِكْرِمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان في ليلة سبت، وطلبوا منهم الاستعداد للهجَوم على المسلمين نهار السبت، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت... ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأي هجوم!!

قالت قريش وغطفان: (لقد صدق نعيم).

ولما رُفِضَ طلبُ قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالوا: (لقد صدق نعيم)!

وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم[٢٠].

وعاد الأحزاب إلى مواطنهم دون أن يحقِّقوا أهدافهم في القضاء على المسلمين.

---

[١٨] النهزة: الفرصة.

[١٩] الرهن: جمع الرَّهْن، وهو ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك.

[٢٠] انظر التفاصيل في: الرسول القائد (٢٢٢ – ٢٢٣).

لقد كانت للإشاعات التي بثّها نعيم لغرض تفريق كلمة الأحزاب، أثر حاسم في معنويات قريش وحلفائها من القبائل العربية وبني قريظة.

والحرب الحديثة، تعتمد على بث الإشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار.

وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات[٢١] العسكرية في تشكيلات الجيوش ومقراتها العليا.

والسؤال الآن؛ لو لم يطبِّق الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام أسلوب "الكِتْمَان" الشديد، ولو لم يطبِّق نعيم هذا الأسلوب، فهل كان بإمكان نعيم أن يقوم بهذا الدورِ الحاسم في تفرقة صفوف الأحزاب ونزع الثقة من نفوسهم؟!

---

[٢١] المخابرات.

الكتمان بالأسلوب
(٧)

أ) وفي غزوة "بني لِحْيان" الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء "الرَّجيع"، أراد النبي صلى الله عليه وسلم معاقبتهم على فعلتهم.

كما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمحاولة قريش التجمع مع حلفائها لغزو المسلمين، ففكر في الحركة إليهم، للتأثير في معنويات قريش والقبائل الأخرى، وللتعرض ببني لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين.

وأظهر النبي صلى الله عليه وسلم، أنه يريد "الشام" حتى يستطيع مباغتة بني لحيان دون أن يعرفوا بحركته إليهم.

وتحرك النبي صلى الله عليه وسلم بقواته شمالاً، فلما اطمأن إلى انتشار خبر حركته إلى الشمال باتجاه "الشام"، كرّ راجعاً باتجاه مكة المكرمة جنوباً، مسرعاً في حركته، حتى وصل إلى منازل بني "لحيان" بـــ "غَرَّان"[٢٢].

ولكن "بني لحيان" فروا إلى رؤوس الجبال، واستاطعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم [٢٣].

لقد "كتم" النبي صلى الله عليه وسلم اتجاه حركته، فسار شمالاً ثم عاد جنوباً، فكانت هذه الغزوة انتصاراً معنوياً للمسلمين على "بني لحيان"، والنصر المعنوي لا يقل أهمية عن النصر المادي.

ب) وفي غزوة "خيبر"[٢٤] التي كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، كان يهود "خيبر" قد حالفوا غطفان على أن تعاون غطفان يهود خيبر إذا داهمهم الخطر من المسلمين.

---

[٢٢] غران: منازل بني لحيان، وغران واد بين أمج وعسفان. وعسفان: موضع بين الجحفة ومكة المكرمة وهي من مكة المكرمة على مرحلتين. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧٤/٦).

[٢٣] انظر التفاصيل في الرسول القائد (٢٣٨ – ٢٣٩).

ولكي يحول النبي صلى الله عليه وسلم بين تعاون غطفان ويهود "خيبر" في حرب المسلمين، تحرّك بأصحابه إلى مواضع "الرَّجيع" من أرض غطفان، وبهذه الحركة استطاع النبي صلى الله عليه وسلم، إيهام غطفان بأن المسلمين يريدونهم، وأن قوات المسلمين توشك أن تطوقهم وتقضي عليهم.

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى "خيبر"، ولكنه بعث بمفرزة من أصحابه لمباغتة ديار غطفان بعد أن تركتها قوات غطفان لمعاونة يهود "خيبر".

ونجحت هذه المفرزة في إلقاء الرعب في ديار غطفان، مما اضطر هذه القبيلة إلى الإسراع بالعودة إلى ديارها لحمايتها من تهديد المسلمين، وتركت يهود "خيبر" وحدهم أمام المسلمين.

وهكذا نجحت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم في عزل يهود "خيبر" عن غطفان حلفائهم.

ولعل أهم عامل من عوامل انتصار المسلمين على يهود "خيبر" في هذه الغزوة، هو عامل "الكِتْمَان"، الذي جعل غطفان يظنون أن النبي صلى الله عليه وسلم يريدهم في غزوته.

---

[٢٤] خيبر: ناحية على ثمانية برد من االمدينة المنورة لمن يريد الشام. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٩٥).

دروس من غزوة الفتح
(٨)

أ) وفي غزوة فتح "مكة" المكرمة التي كانت في رمضان من السنة الثامنة الهجرية، بلغ النبي صلى الله عليه وسلم في تطبيق عامل "الكِتْمَان" حد الروعة، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالاً من أعظم أمثلة التاريخ العسكري في تطبيق "الكِتْمَان" إلى أبعد الحدود.

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بإنجاز استعداداتهم للحركة، وبعث إلى القبائل المسلمة مَن يخبرها بإنجاز استعداداتهم للحركة أيضاً.

كما أمر أهله أن يجهّزوه، ولكنه لم يخبر أحداً من المسلمين في الداخل أو الخارج بنياته وأهدافه من حركته واتجاهها.

بل أخفى نياته وأهدافه واتجاه حركته حتى عن أقرب المقربين إليه، ثم أرسل سرية أبي قتادة الأنصاري إلى "بطن إضم" ليزيد من إسدال الستار الكثيف على نياته وأهدافه الحقيقية.

ودخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي تُهيّئ جهاز النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لها: (أي بُنَيَّة! أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهّزوه؟)، قالت: (نعم، فتجهّز)، قال: (فأين ترينه يريد؟! " قالت: (والله لا أدري!).

ب) ولما اقترب موعد الحركة، صرَّح الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سائر إلى مكة المكرمة، ولكنه بثّ عيونه وأرصاده ليحول دون وصول أخبار اتجاه حركته إلى قريش.

بعث حاطبُ بن أبي بلتعة رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة المكرمة، أخبرهم في تلك الرسالة بنيات المسلمين في التوجه إلى فتح مكة المكرمة.

وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة، فبعث علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه والزبير بن العوّام رضي الله عنه، ليدركا تلك المرأة التي تحمل تلك الرسالة، فأدركاها وأخذا الرسالة منها.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً يسأله: (ما حملك على ذلك؟!).

قال حاطب: (يا رسول الله! أما والله، إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت. ولكنني كنت امرءاً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم)!

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (يا رسول الله! دعني فلأضرب عنقه، فإنه قد نافق).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أما إنه قد صدقكم، وما يدريك؟ لعل الله اطّلع على من شهد "بَدْراً" فقال: اعملوا ما شئتم).

لقد شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه[٢٥].

ذلك هو مبلغ يقظة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وحذره، حرصاً على عدم تسرب المعلومات عن المسلمين إلى المشركين، تطبيقاً عملياً للكتمان الشديد.

وذلك هو مبلغ حرص الصحابة على الكتمان، حتى ليتقدم صحابي جليل مثل عمر الفاروق رضي الله عنه، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، مستأذناً بقتل حاطب بن أبي بلتعة، لأنه لم يحافظ على الكتمان الشديد.

ج) لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم أشد الحرص، على ألاّ يكشف نياته، عندما اعتزم الحركة لفتح مكة المكرمة، وكان سبيله إلى ذلك "الكِتْمَان" الشديد.

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه وأعزهم عليه: أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

بل لم يبح بنياته تلك إلى أحب نسائه إليه وأقربهن إلى نفسه؛ عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

[٢٥] الرسول القائد (٢٢٤ - ٢٢٥).

وبقيت نياته سراً مكتوماً حتى أنجز هو وأنجز أصحابه جميع استعدادات الحركة، وحتى وصل أمره الإنذاري[٢٦] إلى القبائل المسلمة خارج المدينة المنورة لإنجاز الاستحضارات

ولكنه أباح بنياته في الحركة إلى مكة المكرمة قبيل خروجه من المدينة المنورة، حيث لم يبق هناك مبرر للكتمان، لأن الحركة أصبحت وشيكة الانطلاق، ولأن الوقت اللازم لوصول المعلومات اللازمة عن حركته إلى مكة لم يكن متيسراً.

ومع ذلك فإنه بث عيونه وأرصاده ودورياته، لتحول دون تسرّب المعلومات عن حركته إلى قريش.

بثّ عيونه وأرصاده داخل المدينة المنورة، ليقضي على احتمال لتسرب أخبار حركته من أهلها إلى قريش؛ وقد رأيت كيف اطلع على إرسال حاطب بن أبي بلتعة برسالته إلى مكة المكرمة، فاستطاع أن يحجز تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها.

وبث دورياته الاستطلاعية داخل المدينة المنورة وخارجها، ليمنع قريشاً من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من إرسال تلك المعلومات إليها.

وبقي النبي صلى الله عليه وسلم يقظاً كل اليقظة، حتى وصل إلى ضواحي مكة المكرمة، فنجح أعظم النجاح بترتيباته الوقائية التي اتخذها لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين[٢٧].

فقد وصل جيش المسلمين "مَرّ الظهران" على مسافة أربع فراسخ من مكة المكرمة، فعسكر هناك.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم، أن يوقد كُلّ مسلم في جيشه ناراً، حتى ترى قريش ضخامة جيش المسلمين جون أن تعرف هويته، فيؤثر ذلك في معنوياتها وتستسلم

---

[٢٦] الأمر الإنذاري: تعبير عسكري، يقصد به الأمر التمهيدي الذي يصدر (مبكراً) قبل إصدار الأوامر المفصلة، لغرض إعطاء فكرة للقادة المرؤوسين عن الحركة المقبلة، ولكي تنجز الاستحضارات اللازمة بكفاية لهذه الحركة.

[٢٧] الرسول القائد (٢٣٧ – ٢٣٨).

للمسلمين دون قتال، وبذلك يؤمّن النبي صلى الله عليه وسلم خطته العسكرية في دخول مكة المكرمة دون إراقة الدماء.

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم، ورأت قريش تلك النيران الكثيرة تملأ الأفق البعيد.

وأسرع أبو سفيان بن حرب وبُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكة المكرمة متّجهين نحو مصدر تلك النيران، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين، قال أبو سفيان لصاحبه بديل: (ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً).

وردّ بديل على أبي سفيان قائلاً: (هذه والله خزاعة حمشتها[٢٨] الحرب).

و لم يقتنع أبو سفيان بجواب بديل، فقال: (خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها " [٢٩].

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة، بأن المسلمين سيهاجمون مكة المكرمة، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف وأين سيجري الهجوم المتوقع.

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام لا يتخلى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيريّة.

ذلك لأن نيات المسلمين في مهاجمة مكة المكرمة وفتحها، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر، لاستطاعت أن تحشد قواها وقوات حلفائها، ولأعدّت خطة عسكرية لإحباط هجوم المسلمين، ولكان بإمكانها مقاومة المسلمين أطول مدة ممكنة، ولأوقعت بقوات النبي صلى الله عليه وسلم خسائر في الأرواح والأموال دون مبرّر.

د) وكما "كتم" النبي صلى الله عليه وسلم نياته في غزو "مكة" المكرمة، وموعد حركته من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة.

فقد استطاع عليه الصلاة والسَّلام، أن "يكتم" عدد قواته الزاحفة لفتح مكة المكرمة أيضاً.

---

[٢٨] حمش الناس وغيّرهم: جمعهم. وحمش فلاناً، هيجه وأغضبه. وحمش القوم: ساقهم بغضب.
[٢٩] الرسول القائد (٣٢٦).

كان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، قد خرج من معسكر المسلمين في "مَرّ الظهران" – ضاحية من ضواحي مكة المكرمة – وكان العباس على بغلة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هدفه من خروجه هو إخبار قريش بالجيش الضخم الذي جاء لقتالها والذي لا قِبَل لها به، حتى يؤثر في معنوياتها ويضطرها إلى الاستسلام دون قتال، فيحقن بذلك دماءَها، ويؤمّن لها صلحاً شريفاً مع المسلمين ويخلّصها من معركة خاسرة لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية.

وفي طريقه إلى مكة المكرمة، سمع حديث أبي سفيان بن حرب وبديل بن ورقاء، فعرف العباس صوت أبي سفيان، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين، ونصحه أن يلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل جيش المسلمين مكة المكرمة صباح غد، فيحيق به وبقومه العقاب.

واستجاب أبو سفيان لنصيحة العباس...

أردف العباس أبا سفيان على بغلة النبي صلى الله عليه وسلم، وتوجّها نحو معسكر المسلمين، فلما وصل العباس المعسكر ودخله، مر بنيران المسلمين في طريقه إلى خيمة النبي صلى الله عليه وسلم.

ورآه المسلمون، فلم ينكروا شيئاً، لأنهم عرفوا العباس، فلما مر العباس بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عرف أبا سفيان، وأدرك أن العباس يريد أن يُجيره.

وأسرع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى خيمة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وصل إليها طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمره بضرب عنق أبي سفيان.

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، طلب من عمه العباس رضي الله عنه، أن يستصحب أبا سفيان إلى خيمته، فإذا انقضى اليل أحضره صباح غدٍ.

فلما كان الصباح، وجيء بأبي سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أعلن أبو سفيان إسلامه، فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنه وحقن دمه.

وقال العباس رضي الله عنه: (يا رسول الله! إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر، فاجعل له شيئاً).

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم! مَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمِنْ، ومَن أغلق بابه فهو آمِن ومَن دخل المسجد فهو آمن).

وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور كما يحب بعيداً عن وقوع الحرب بين المسلمين وقريش، فأوصى العباس رضي الله عنه باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي الذي سيمر منه جيش المسلمين وشيكاً، حتى يستعرض الجيش الزاحف كلّه، فلا تبقى في نفسه أيّة فكرة للمقاومة.

قال العباس رضي الله عنه: (خرجت بأبي سفيان، حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومرّت القبائل على راياتها: كلّما مرّت قبيلة قال: يا عباس! مَن هؤلاء؟! فأقول: سُلَيْم! فيقول: مالي ولسُلَيم؟! ثم تمر القبيلة، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟! فأقول: مُزَيْنَة! فيقول: مالي ولمزينة؟! حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته، قال: مالي ولبني فلان!

حتى مر الرسول صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرَى منهم إلا الحدُق من الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس! مَنْ هؤلاء؟! قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغَدَاة عظيماً...

قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة. قال: نعم إذن).

عند ذلك قال العباس رضي الله عنه لأبي سفيان: (النجاة إلى قومك!).

فأسرع أبو سفيان إلى مكة المكرمة، فدخلها مبهوراً مذعوراً[٣٠].

هـــ) ليس من السهل أبداً، أن يتحرك جيش تَعْداده عشرة آلاف راكب وراجل، مؤلف من كل القبائل العربية تقريباً، من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، دون أن تعرف قريش، ودون أن يعرف حلفاؤها، وقت حركة هذا الجيش الإسلامي اللّجب ونياته وعَدَدَه وعُدَدَه... حتى يصل المسلمون الفاتحون إلى ضواحي مكة المكرمة، فيفلت الأمر من قريش وحلفائها ولا يجدون أمامهم غير الاستسلام!

---

[٣٠] الرسول القائد (٣٢٦ - ٣٢٨).

إن "كِتْمَان" النبي صلى الله عليه وسلم نياته حتى عن أقرب المقربين إليه، وكتمان وقت حركته وتعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه، هو الذي أدّى إلى الفتح القريب.

إن دروس فتح مكة، في "الكتْمَان" الشديد، يمكن أن تعتبر – كما قلت سابقاً – مثالاً رائعاً لمزايا التمسّك بأهداب "الكَتْمَان" الشديد.

ولعل هذا الغزوة ودروسها في "الكتْمَان"، تكون على رأس ما يدرّس في الكليات العسكرية العربية والإسلامية وكليات الأركان، من تاريخ الحرب، ليعرف العسكريون العرب والمسلمون، كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم في مجال "الكتْمَان"، وكيف كان ينتصر على أعدائه لتطبيقه هذا العامل الحيوي من عوامل وضع مبدأ "المباغتة" في حيّز التنفيذ؟

عوامل أخرى في الكتمان

(٩)

أ) ذلك هو جانب من جوانب عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية، وهو جانب تطبيق عامل "الكِتْمَان" الشديد.

والعوامل العسكرية الأخرى التي طبّقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، لا تقل روعة وجلالاً عن تطبيقه عامل "الكِتْمَان".

إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم العسكرية مليئة بالعبر والعظات، والدروس والحِكَم، تستحق دراسة الدارسين وبحوث الباحثين.

لقد كانت تدابير النبي صلى الله عليه وسلم في "الكِتْمَان" بالغة حدّاً رفيعاً، حتى ليمكن أن تكون أساليبه في "الكِتْمَان" مثالاً يُحْتذى في كل زَمان ومكان.

كان له في المدينة عيون وأرصاد، يطلعونه على كل صغيرة وكبيرة تضرّ بالمصلحة العامة في السلم والحرب على حد سواء.

كان حُذَيْفَة بن اليمان العبسي[٣١] رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين لا يعلمهم أحد غيره[٣٢]، أي أنه كان كاتم سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته[٣٣]، اختاره دون غيره من أصحابه، لتمتعه بمزايا "الكِتْمَان" الشديد، فلا يُفشى سرّه لأحد، وبحضور البديهة فلا يرتبك في المواقف الحرجة، وبتقديره العميق لأهمية صيانة المعلومات العسكرية عن الأعداء فلا يُفشي نياته ونيات المسلمين وأهدافهم، وبالذكاء الخارق وبموهبة حب الاستطلاع.

هذه المزايا، هي مزايا كاتم السر المثالي، وكان لها أثر في حياته كلها: كلما وجد أو سمع "خبراً" يؤثّر في مصير الإسلام والمسلمين، "أخبر" به المسؤولين فوراً[٣٤].

---

[٣١] انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ – ١١٧) – بيروت – ١٣٨٥ هـ.
[٣٢] أسد الغابة (٣٩١/١) والاستيعاب (٣٥٠/١) وفتح الباري بشرح البخاري (٧٢/٧).
[٣٣] كاتم السر: هو ضابط الاستخبارات (المخابرات)، كمل يعبر عنه العسكريون المحدثون.
[٣٤] انظر التفاصيل في: قادة فتح بلاد فارس (١١٦).

ولم يكن حذيفة بن اليمان وحده يؤدي هذا الواجب، بل كان من واجب كل مسلم أن يؤدي واجبه في مراقبة المشبوهين والمنحرفين والمنافقين وأعداء الإسلام والمسلمين.

سمع عُمَيْرُ بن سعد الأنصاري الأوسي(٣٥) جلاّس بن سُوَيْد بن الصامت(٣٦) الذي تخلف عن غزوة "تبوك" يقول ما لا يليق بمسلم، فرفع عمير ما قاله جلاّس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عمير في كنف جلاّس الذي تزوج أمه بعد أبيه، فقال عمير لجلاّس: (والله يا جلاّس! إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي أبداً، وأعزّه عليّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنّك، ولئن صمتُّ عليها ليهلكن ديني، ولأحدهما أيسر علي من الأخرى)، فحلف جلاّس لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد كذب عليّ عمير، وما قلت ما قال عمير بن سعد)؛ فأنزل الله عزّ وجل فيه: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ}(٣٧)، فتاب جلاّس وحسنت توبته، حتى عرف منه الخير والإسلام(٣٨).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمير بعد نزول تلك الآية الكريمة في تصديق ما قاله عن جلاّس: (وفَت أذنك يا غلام، وصدّقك ربك)(٣٩).

لقد كان كل مسلم حق، حارساً أميناً على الأسرار العسكرية، وعلى كل مصالح المسلمين العليا.

ب) وكما كان للنبي صلى الله عليه وسلم عيون وأرصاد داخل المدينة المنورة، ليضمن بهم تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين في قاعدتهم الأمينة — المدينة – وليحول دون انهيار حصونه من الداخل في المدينة المنورة.

---

(٣٥) انظر سيرته في: قادة فتح العراق بالجزيرة (٤٦٩ – ٤٧٥) – القاهرة – ١٩٦٤.
(٣٦) انظر سيرته في الإصابة (٢٥٢/١) وأسد الغابة (٢٩٢/١) والاستيعاب (٢٦٤/١). وأنظر مجمل سيرته في هامش: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩).
(٣٧) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ – ٧٤).
(٣٨) سيرة ابن هشام (١٤١/٢ ب ١٤٢).
(٣٩) الاستيعاب (١٢١٦/٣) وأسد الغابة (١٤٤/٤).

كذلك كان له عيون وأرصاد خارج المدينة المنورة: في مكة المكرمة، وفي القبائل العربية المعادية، وفي أرض الرُّوم وبلاد فارس، يخبرونه عن كل صغيرة وكبيرة تضرّ أو يمكن أن تضرّ بمصالح الإسلام والمسلمين العليا.

ذلك ما يفسّر لنا، أسباب انتصاره على أعدائه الكثيرين، ذلك لأنه كان يطّلع على نياتهم العدوانية قبل وقت مبكر، فيعمل من جانبه على إحباط ما يبيّتونه للإسلام والمسلمين من غدر وخيانة ودسائس ومؤامرات.

وذلك – أيضاً – يفسّر لنا أسباب عدم استطاعة المشركين ويهود وأعداء المسلمين أن يباغتوا قوات النبي صلى الله عليه وسلم في الزمان والمكان والأسلوب، بينما استطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، أن يباغت أعداء الدين الجديد في معظم غزواته وسراياه.

كانت عيونه وأرصاده خارج المدينة المنورة من المسلمين الذين يخفون إسلامهم، أو من ذوي قرباه ورَحِمِه.

قبل غزوة "أُحد" أرسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم رسالة يخبره بها عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قوات قريش، فأسرع حامل رسالة العباس رضي الله عنه بإيصال تلك الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، حتى قطع المسافة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة بثلاثة أيام، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم ماكثاً بمسجد "قُباء"[٤٠]، فدفع إليه بالرسالة[٤١].

كما أخبر العباسُ وغيره من أهل مكة المكرمة النبي صلى الله عليه وسلم، بكل حركات ونيات قريش وحلفائها.

وما يقال عن العباس وأهل مكة المكرمة، يقال عن الكثيرين من الناس، الذين يعيشون بين القبائل العربية المعادية للمسلمين، أو يعيشون في بلاد فارس وأرض الروم.

ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن الله سبحانه وتعالى كان مع النبي صلى الله عليه وسلم: يؤيده بنصره، ويمدّه بعونه...

---

[٤٠] قباء: قرية على ميلين من المدينة المنورة، على يسار القاصد إلى مكة المكرمة. أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١/٧).

[٤١] الرسول القائد (١٦٢).

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، كان بدوره يُعدُّ كل متطلبات النّصر، حتى يكون قدوة حسنة لأمته من بعده، وحتى يطبِّق عملياً كلَ آيات الجهاد[٤٢] في الإسلام ومنها قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ}[٤٣].

ولعل من أهم متطلبات القتال، هو "الكِتْمَان".

والقاعدة الذهبية المعروفة، هي أن الأمة التي "تكتم" أسرارها الحربية، هي الأمة التي يمكن أن تنتصر.

والأمة التي لا "تكتم" أسرارها الحربية، هي الأمة التي لا يمكن أن تنتصر.

وما يقال عن الأمة يقال عن الأفراد، لأن الأمة تتكون من أفراد، والبناء الضخم يتكون من ذرّات.

والعسكريون خاصة، مطالبون بأن يكونوا في ذروة "الكِتْمَان" الشديد.

والمدنيون أيضاً، مطالبون بأن يكونوا في ذروة "الكِتْمَان" الشديد أيضاً، لأن الجيش من الشعب، ونيات الجيش لا يمكن أن تخفى على الشعب.

والقادة يجب أن يكونوا نموذجاً رفيعاً في "الكِتْمَان".

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية "الكِتْمَان" يقود رجاله "حتماً" إلى الهاوية.

وإفشاء الأسرار الحربية خيانة بالنسبة للمدنيين والعسكريين على حد سواء.

وإفشاء تلك الأسرار خيانة عظمى بالنسبة للقادة العسكريين والقادة المدنيين أيضاً.

---

[٤٢] ورد الجهاد في (٢٦) آية من آيات الذكر الحكيم. أنظر التفاصيل في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (١٨٢ – ١٨٣).
[٤٣] الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ – ٦٠).

والذي لا "يكتم" الأسرار العسكرية لأمته، فإن وجوده فيها من مصلحة أعداء أمته.

وكفى خزياً وعاراً لفرد في شعب يكون وجوده فيها ليس من مصلحة شعبه بل من مصلحة أعداء شعبه.

وَرُبَّ كلمة عابرة يحسبها المرء تافهة، وهي في واقعها سراً عسكرياً يؤدي إفشاؤه إلى كارثة عسكرية.

وتاريخ الحروب خير شاهد، وفيه عبر لمن اعتبر.

إن "الكتْمَان" في الإسلام "دين"، حثّ عليه القرآن الكريم، وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم، وطَبّقه في كل حياته العسكرية.

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: (من حُسْنِ إسلام المرء تركه مالا يعنيه).

وحسب المسلم الحق، أن يتأسّى بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وإلا فهو مسلم جغرافي أو مدّع للإسلام أو متّهم بأنه مسلم والإسلام منه براء.

كيف نكتم الأسرار
(١٠)

والسؤال الآن: كيف نكتم أسرارنا العسكرية؟

والجواب على ذلك سهل يسير، ولكن العمل على وضعه في حيّز التنفيذ يحتاج إلى جهد كبير.

لقد أصبحت "الثرثرة" عادة مستحكمة في نفوس الكثيرين، وهي من جملة عيوبنا التي يجب أن نحاربها بدون هوادة ورحمة.

والذين يقدّرون قيمة الحفاظ على الأسرار العسكرية، عليهم أن ينصحوا الذين يثرثرون بهذه الأسرار هنا وهناك ليشيعوا في نفوسهم رذيلة حب الظهور.

إن من واجب مَنْ يعرف الكتمان مزيته، أن يبادر إلى إسكات كل من يمسّ الأسرار العسكرية من بعيد أو قريب.

أما أن يستمع ويصغي مع الآخرين إلى إذاعة الأسرار العسكرية، ثم لا يقول كلمة الحق صريحة حاسمة، فهو شريك للمذيع في إفشاء تلك الأسرار.

كما يجب تدريب أفرد الجيش وضباطه على أرفع درجات "الكِتْمَان".

لقد كان من أسباب هزيمة العرب في حرب حزيران — يونيو - ١٩٦٧، هو أن إسرائيل - كما صرّح قادها - استطاعت جمع أدق المعلومات العسكرية عن العرب من ناحية، واستطاعت كتمان أسرارها العسكرية عن العرب من ناحية أخرى.

ومن الغريب جداً، أن بعض أجهزة الإعلام العربية، هيّأت لإسرائيل معيناً لا ينضب من المعلومات عن الجيوش العربية وأسرارها التي كان من الواجب أن تكون في حرز حريز.

ليس من "الكِتْمَان" في شيء، نشر وإذاعة تنقلات القطعات العسكرية من مكان إلى آخر.

وليس من "الكِتْمَان" نشر وإذاعة شراء الأسلحة وكمياتها ومستودعاتها ونشر تصاويرها.

وليس من "الكِتْمَان" نشر وإذاعة نياتنا وأهدافنا وما نريد عمله في الميدان.

والرجل الذي يريد القضاء على خصمه، لا يمكن أن يقول له كل يوم: سأقضي عليك! سأقتلك!... الخ...

ومن المعقول، بل من البديهي، أن يكتم هذا الرجل نياته، بل يتظاهر بعكس ما يريده لغرض تضليل خصمه.

فكيف إذا أراد شعب من الشعوب، القضاء على خصمه دفاعاً عن الحق المغتصب، أن يقول له بمناسبة وبغير مناسبة علناً: سأقضي عليك... سأفعل فيك الأفاعيل؟!...

يجب أن يكون شعار كل فرد من العرب ومن المسلمين: لا أسمع! لا أرى! لا أتكلّم!

ويجب أن يكون شعار (...) الأمة الإسلامية: لا أسمع! لا أرى! لا أتكلم!

إن الظروف الراهنة تحتم علينا جميعاً الالتزام بالكتمان الصارم.

وقد رأينا كيف هيأ الالتزام بالكتمان للمسلمين الأولين النصر المؤزّر.

فهل نعتبر بدروس الكتمان التي طبقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل أربعة عشر قرناً، أم لا نزال بحاجة إلى النكسات والنكبات؟

الخاتِمَة

إذا كان "الكتْمَان" واجباً في الأمم، يلتزم به كل فرد من الأفراد، فإن "الكتْمَان" في الإسلام دين يلتزم فيه كل مسلم صحيح الإيمان.

والمسلم الحق كتوم، لأنه يعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (قل خيراً أو فاسكت).

وإذا كان "الكتْمَان" في الحروب القديمة ضروري للجيوش، فإن "الكتْمَان" في الحروب الحديثة أكثر من ضروري، نظراً لاختراع أجهزة التصنت والوسائل العلمية المذهلة لجمع المعلومات.

الأجهزة اللاسلكية تنقل المعلومات إلى العدو بسرعة خاطفة.

وهناك طائرات تجسس تطير بدون طيار، وهناك غواصات تجسس تسير بالطاقة الذرية.

وهناك أجهزة إصغاء تنقل الهمس داخل الجدران إلى العدو بسهولة ويسر.

ولعل الذي قال: (للجدران آذان)، قد نظر من وراء الغيب إلى أجهزة التجسس الإلكترونية وأثرها في نقل المعلومات إلى العدو بسرعة خاطفة.

يجب أن نتعلم "الكتْمَان" ونلقنه أولادنا ونساءنا، حتى يصبح طبيعة في نفوسنا، فذلك وحده يفوّت على العدو أهدافه التجسسية.

إن لدينا كلاماً كثيراً نستطيع قضاء الوقت فيه بدون التطرّق إلى القضايا العسكرية.

فحرام علينا أن نلهو بالأسرار العسكرية فنتيح للعدو فرصة اقتناصها والعبث بمصائرنا.

والحمد لله أعظم الحمد

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

